المحاضرة الرابعة :
صعوبات الملاحظة

الإدراك الحسي:

ان الملاحظة أساسا عملية إدراك، إدراك حسي لسلوك أو حدث أو علاقة أو اتصالية. . . ومعلوم أن الادراك يخطئ، كما أن له حدوده وقوانينه. ان لأعضاء الحس حدودا معينة، فحواس الانسان ليست أدوات يوثق بها للحصول على مقاييس دقيقة للمسافة وللسرعة أو الحجم أو الشدة الأمر الذي يؤدي بطبيعة الحال إلى التقليل من القدرة على ملاحظة الظاهرات ملاحظة دقيقة. «كذلك تؤدي نواحي النقص الخلقية، مثل عمى الألوان والصمم الجزئي، و الأعطاب الوقتية التي ترجع إلى التعب أو العقاقير أو الحالة الانفعالية والتدهور التدريجي بسبب كبر السن أو المرض، إلى تحريف الملاحظات»

كما أننا لا نلتقط من العدد الهائل من المنبهات والمثيرات الحسية سوى القليل منها، وذلك اما لكونها تفرض نفسها حسب شدتها أي حسب تأرجحها بين حد أدنى، لابد من توفره لحدوث الإدراك، وبين حد أقصى يصعب معه التمييز ان هي تجاوزته. . . أو لأننا لا نلتقط منها سوى ما يلائم نشاطنا واهتماماتنا الراهنة. إننا حينما ننظر إلى موضوع معين، لا يدرك كل واحد منا نفس الأمر، بل ان نفس الشخص قد يختلف إدراكه باختلاف الأوقات. فمثلا إذا نظر إلى رسم تخطيطي لمكعب، فإنه قد يراه في لحظة على أنه صندوق مفتوح، وفي وقت آخر قد ي راه مجرد مكعب أو يدركه في تاريخ لاحق على أنه غطار مربع من السلك. ذلك أننا نعمل على عزل المثيرات الحسية والاختيار بينها بناء على عوامل ذاتية، أو نعمد إلى تأويلها بناء على مشاغلنا وتوقعاتنا.

وكثيرا ما يكون الفكر نفسه مصدر الخطأ في عملية الملاحظة، إذ أنه يملأ وبدون وعي، الثغرات وفقا للخبرات والمعارف السابقة. وفي ذلك يقول جوته: «اننا لا نرى إلا ما نعرفه».

فقد يلاحظ الفرد من الظواهر سوى ما يتصل باهتماماته، وما قد يتفق مع اتجاهاته وأغراضه، «إن المعاني توجد في عقول الناس أكثر منها في الموضوعات نفسها»، فإذا قام مدرس وطبيب ومهندس معماري بمعاينة مبنى احدى المدارس، فإن كلا منهم سوف يرى الأشياء التي تقع في بؤرة اهتمامه، بينما يغفل انتباهه عن الأشياء الأخرى، فالمدرس سوف يلاحظ المجالات والمواقف في بعديها التربوي والتعليمي، بينما يلاحظ الطبيب الشروط الصحية للمبنى، أما المهندس فإنه قد يهتم بالبناء وهندسته.

ويضرب لنا فان دالين على ذلك المثال التالي: في إحدى الأمسيات فشل كل عضو من أسرة ستيتسون في أن يصل إلى إدراك سليم للوقائع. فيراي الأستاذ ستيتسون شخصا ما يسير على مسافة منه، واستنتج من حركاته الرشيقة وأبعاد جسمه المألوفة أن هذا الشخص هو الآنسة ريتشارد، معلمة الرقص، التي كان يقابلها عادة في مثل ذلك الوقت من اليوم وحينما اقترب، اكتشف أن هذه المرأة ليست إلا شخصا غريبا في نفس حجمها. وبينما كانت ابنته

حين تقرا قصة مثيرة عن جريمة قتل، إذا بها تسمع صوتا خارج المنزل، واستنتجت أن شخصا متطفلا يريد اقتحام المنزل، إلا أن ذلك الشخص لم يكن في الواقع إلا أمها التي عادت إلى المنزل في وقت لا يتوقع أحد فيه عودتها. أما الزوجة فقد دخلت إلى المنزل وهي تزعم أنها لاحظت رجلا يستثير الشفقة، رث الثياب يسير في الشارع، ويحتاج بشكل واضح إلا السيد ليتلفيلد، وهو شخص غني بخيل.

من هذا يتضح بجلاء أن الإدراك عرضة للتحريف والتشويه، نتيجة لانفعالات الملاحظ، ودوافعه، وتعصباته وحالته الجسمية. كما يمكننا بصدد هذه الصعوبات أن نسوق المثال التالي: قام روشلان **سنة (1950)**، بدراسة إمكانية الملاحظة الدقيقة في بعض المواقف المحددة، وكان الموقف الذي اختاره ليكون موضوع الملاحظة يتلخص في قيام عدد من المفحوصين بأداء اختبارين يدويين أما أنظار باحثين اثنين. ووضع روشلان لائحة بجميع الاستجابات الممكنة والمحتملة أمام ذلك الموقف أي وقت انجاز الاختبارين. وتضمنت تلك اللائحة **24** خاصية، وكان على الملاحظين تسجيل ظهورها بالتتابع. وعند مقارنة تقارير الملاحظين وجد اختلافا في ست خصائص من أصل **24** خاصية. وانتهى روشلان إلى أن سبب الاختلاف راجع إلى كون أحد الملاحظين الاثنين أهمل عددا كبيرا من الاستجابات اللفظية للمفحوصين، وبعبارة أخرى لقد قام ذلك الملاحظ بعزل وتمييز الاستجابات، وركز انتباهه على الاستجابات الحركية وأهمل الاستجابات اللفظية للمفحوصين أثناء أدائهم. كما يحدث أن يخلط العقل بين الفكرة والواقعة، بحيث لا تبدو الوقائع كما هي بل يحولها العقل إلى أفكار مجردة وقد تفقد هذه الأفكار ارتباطها بأصولها، وقد لا يكون لها أصول واقعية انما تكون من خلق خياله وتركيب ذاكرته.

ومن الضروري بناء على ما تقدم أن بتدرب الباحث على القيام بالملاحظة لتجنب احتمال الوقوع في أخطاء الإدراك وحتى يستطيع الحصول على بيانات علمية بالمعنى الدقيق، وينبغي عليه، منذ البداية تحديد ما يلي:

- الوقائع التي يجب ملاحظتها.
- كيفية تسجيل الملاحظة.
- الإجراءات الضرورية للتأكد من دقة الملاحظة.
- نوع العلاقة التي يجب أن تقوم بين الملاحظ والملاحظ وكيفية تكوين هذه العلاقة.

وليس من شك في أن التحديد الدقيق لهذه النقاط يختلف باختلاف أغراض الملاحظة وأنواع البحوث.

ولتغطية النقص التكويني المتمثل في كون الحواس لا تجعلنا ندرك إلا عددا محدودا من المثيرات ونغفل ما يمر منها بإيقاع سريع، يلجأ العلماء إلى أدوات وأجهزة تكمل عمل أعضاء الحس وتزيد في قدرتها مثل الصور، الأفلام، آلات التسجيل كالفيديو. . . وغير ذلك والتي تقدم اليوم الأداة الفعالة لتثبيت الحركات وبالتالي لتركيز الملاحظة. ان بإمكان تلك

الوسائل إعادة السلوك موضوع الملاحظة وبإمكانها تثبيته أو ابطاؤه الأمر الذي يمكن الملاحظ من إدراك دقيق للحظاته المختلفة في تعاقبها.

وتكون الصعوبة عكسية في أحيان كثيرة، بحيث لا تكمن في سرعة السلوك وقصر المدة التي يستغرقها واستحالة ادراكه في جزئياته المتلاحقة، بل في بطئه، فتكمن المشكلة في طول مدة الظاهرة أو السلوك موضوع الملاحظة. وقد تغلب علماء النبات مثلا على هذه الصعوبة بالاستعانة بالسينما وبتقنيات تسجيل الصور واحدة تلو الأخرى، كما أن تقنيات الإسراع في الشريط تسمح بتركيب للظواهر البطيئة مثل ظواهر النمو. وقد استخدمت هذ التقنية في علم النفس، فأمكن بواسطتها مثلا دراسة شدة التوتر عند فرد أو مجموعة وذلك بالتقاط صور في فترات معينة، وتركيبها من جديد في شريط واحد يعمل على تقريب الصور وبالتالي اختصار السلوك الذي قد يحدث في مدة طويلة على فترة قصيرة.

والحقيقة أن هذه التقنية السينمائية ليست سوى تطبيقا لما يسمى «بالعينة الزمنية» أي عندما يكون الملاحظ في وضع يستحيل عليه التقاط كل لحظات السلوك فيكتفي بتسجيل بعضها في فترات متباعدة نسبيا ويعمل بعد ذلك على تجميعها بتقطيع الشريط وتركيبه.

حضور الملاحظ:

لا شك أن وجود الملاحظ في موقف المفحوص يضيف متغيرا جديدا، الأمر الذي يؤثر بالضرورة في سلوك المفحوص، ويصدق هذا حتى في مجال الميكرو فيزياء (الفيزياء النووية) بحيث تضيف الملاحظة مصدرا من مصادر اللا تحديد، فبالأحرى بالنسبة للظواهر لإنسانية وعندما يدرك المفحوص الملاحظ كملاحظ، ان مجرد وجود الملاحظ في المجال يؤدي بالمفحوص إلى تعديل سلوكه، فيتحتم على الدارس في هذه الحالة محاولة الانغماس في الحياة الطبيعية للمفحوصين (الملاحظة بالمشاركة)، فقد يتخذ الملاحظ عند دراسته مثلا لمختلف التفاعلات داخل المدارس وضعا يسمح له بالانخراط مع المدرسين والتلاميذ دون إثارة شكوكهم، ودون أن يحملهم على تغيير أنماط سلوكهم التي اعتدوها.

وقد يلجأ الملاحظ إلى وضع يمكنه من الملاحظة دون علم المفحوص، وقد وضع علماء النفس والمربون لذلك حجرات «ذات رؤيا في اتجاه واحد» كما استفادوا من وسائل أخرى لملاحظة الأصوات أو التسجيل والتي من شأنها أن تقلل من مضايقة المفحص. وكثيرا ما استعمل «جيزل» تلك الوسائل لملاحظة الأطفال في نشاطهم الطبيعي أو ألعابهم التلقائية.

على أن تلك التقنيات لا يمكن اعتمادها دائما، وكثيرا ما يكون الملاحظ مضطرا للتواجد مع المفحوص، وفي هذه الحالة عليه أن يدخل هذا المتغير (أي حضوره في الموقف) في الاعتبار، على أن ما قد يكتسيه تصرفه من مرونة واندماج في الموقف، قد يضعف من أثر تواجده مع المفحوص فيتمكن هذا من الاستجابة بثقة وتلقائية.

تسجيل الملاحظة:

يحبذ أغلب المشتغلين بمناهج البحث أن يعمد الملاحظ إلى تسجيل ملاحظاته في نفس الوقت وقيامه بالمشاهدة، وذلك حتى تقل احتمالات التحيز ويضمن عدم نسيانه لتفاصيل المشاهدة ان

هو أغفل توثيقها لحظة حدوثها. فبعض الأمور تضيع من الذاكرة بفعل النسيان، وبعضها الآخر قد تحرفه الذاكرة عن عمد أو عن غير عمد.

وقد يعتقد البعض أن الأمور الهامة لا تضيع أبدا من الذاكرة وهذا اعتقاد واضح البطلان، فكم من أمور يشاهدها الإنسان أو يسمع عنها وتكون لها أهمية كبيرة في حينها ثم تضيع بعد ذلك في غياهب النسيان، على أن الملاحظة لا يمكن أن تسجل بكيفية مضبوطة سوى السلوك الخارجي والشاخص الذي يظهر على شكل حركات أو كلمات. . . اننا لا نلاحظ مثلا الخوف كحالة نفسية داخلية بل تجلياته، ولا نلاحظ الذكاء بل كيفية حل المشاكل ومواجهة الصعاب، ولا نلاحظ «الرغبة في الاجتماع» ولكن نلاحظ عدد المرات التي يتجه فيها شخص ما نحو أشخاص آخرين ويخاطبهم في مواقف محددة.

وحتى يكون تسجيل الملاحظة غنيا ومفيدا لتقدم البحث، عليه أن يكون تحليليا أي أن يحلل الموقف أو العملية أو السلوك إلى العناصر والمكونات الأساسية. وعلى الملاحظ أن يستبعد من تسجيله التعميمات المبسترة والسابقة لأوانها، الأمر الذي يمكنه من أكبر قدر من الموضوعية والتي تعني أساسا إمكانية قيام عدد من الملاحظين بملاحظة نفس الخصائص.

وفي قدرتهم على الاتفاق على حد أدنى من النقاط. ان اغفال هذا الشرط يعني فقدان الملاحظة لقيمتها العلمية فلن نلتقط سوى الانطباعات الذاتية للفرد. كما أن حصول الاتفاق بين الملاحظين وبالتالي تحقق قدر من الموضوعية رهين بوضوح المصطلحات المستعملة وأن تكون معرفة تعريفا اجرائيا، ووصفية ما أمكن وغير قابلة للتأويل، ولكن كيف يتم التسجيل، ثم ماذا نسجل؟

رغم أن الجواب على هذا السؤال هو محور هذا الجزء من هذه الدراسة، فإننا سنحاول الإجابة ولكن بشكل عام، ولنا عودة إلى الموضوع عند استعراض شبكات ملاحظة القسم واجراءات تحليل التفاعلات مدرس تلاميذ.

هناك في البداية عملية كشفية استطلاعية سابقة على البحث وممهدة له، تمكننا من تحديد مجال الملاحظة ووضع القوائم أو الجداول أو الشبكات لجميع الاستجابات التي سنسجلها. ويمكن اللجوء، أثناء الملاحظة إلى أسلوبين في التسجيل: فإما أن نسجل حضور أو غياب استجابات معينة، وتواترها، أو نلجأ بعملية تحليلية دقيقة إلى تقدير مدة أو شدة الاستجابة.

قوائم تسجيل الملاحظة:

عادة ما يعتمد في تسجيل التواتر على قوائم تبيان حدوث السلوك أو عدمه ولا نستعمل في حالة قياس نوعية السلوك أو كمية حدوثه. وتتضمن القائمة عددا من الخصائص أو السمات أو أنماط السلوك المرغوب مشاهدتها وتسجيلها، وعادة ما توضع خانتان أو ثلاث أمام كل بند للإجابة بنعم عند ظهور السلوك أم لا عند غيابه أو دون جواب.

مثال: وفيما يلي مثال لملاحظة ووصف سلوك اجتماعي عند التلميذ وهو الاهتمام بمصالح الآخرين

- تفهم حاجات ومشاكل الآخرين.

- مساعدة الآخرين في مواجهة احتياجاتهم وحل مشاكلهم.
- مشاركة الآخرين في الراي والممتلكات الخاصة.
- قبول الاقتراحات والمساعدة.
- إبداء اقتراحات بناءة.
- الالتزام بخطط الجماعة وقراراتها.
- العمل بارتياح ونظام مع الآخرين.
- تشجيع الآخرين.
- اعتراف بمساعدة الآخرين وشكرهم على ذلك.
- توصية الآخرين بالمساهمة والتعاون الجماعي.